بين سيدنا يوسف عليه السلام وامرأة العزيز

وعبد السلام الزعبي

يقول الله تبارك وتعالى :

(وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) .

هاتان الآيتان من سورة يوسف عليه السلام تصوران مشهداً من مشاهد المحنة والإبتلاء التي مر بهما يوسف عليه السلام .

وقد بدأ الابتلاء به عليه السلام يوم أن ألقاه أخوته في الجب حسداً له من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم منزلته لدى أبيهم سيدنا يعقوب عليه السلام ، وبعد ما كان من رؤيته التي رآها وقصها على أبيه فأمره بأن لا يذكرها لأخوته كيلا يكيدوا له كيداً . وها هي ذي الرؤيا كما سجلها القرآن:

(إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين . قال يا بني لا تقصص رؤياك على أخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين)(١) .

وحينما يأذن الله ليوسف عليه السلام بالنجاة من هذا الاختبار الأول ويتيسر له الخروج سالماً من الجب يكون في انتظاره اختبار ثان . إنه الرق الذي ضرب عليه وهو الحر . لا بل هو (الكريم ابن الكريم ابن الكريم) كما جاء ذلك في صحيح الأحاديث .

---

(١) سورة يوسف ٤ ، ٥

يباع يوسف عليه السلام بيع الرقيق وهو من هو كما سبق ويكون مقره بعد ذلك فى مصر وفى بيت وزيرها إنه العزيز الذى اشتراه وقال (لإمرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً)(١) وإذا كانت الحرية هى أسمى مايحرص عليه الإنسان فمابالك بإنسان حر قد سلبت منه حريته قهراً وضرب عليه الرق كرهاً وهو يعيش عيشة الأرقاء على الرغم من أنه يعرف نفسه ومكانته بين الأحرار . وإذا كان المشهد الأول من مشاهد البلاء قد انتهى بخروج سيدنا يوسف عليه السلام من الجب فإن المشهد الثانى من تلك المشاهد قد اتصل بالذى جاء بعده . وهو الذى تحدثت عنه الآيتان اللتان صدرنا فى هذا المقام .

إن ذلك الإبتلاء الثالث هو ابتلاؤه بإمرأة العزيز تلك المرأة التى شغفت حباً به حتى أنها لم تستطع كتمان مايجول فى صدرها وما تحدثت به نفسها . فكان منها ماكان مماهو مسطور فى القرآن وسنعود إليه إن شاء الله عما قريب بالبيان .

ولنخرج بعد ذلك على عجل لإلقاء بعض الضوء على بقية ماكان ليوسف عليه السلام فلم يكد ينجو من مكايد امرأة العزيز التى أرادتها منه لنفسها حتى كان مصيره السجن ليقضى به بضع سنين بغير ذنب أتاه أو جريمة ارتكبها إنما هو كيد النسوة (إن كيدكن عظيم)(٢) ويخرج عليه السلام من السجن بعد أن ثبتت براءته بكل وجوه الإثبات يخرج من السجن ليكون فى استقباله امتحان من نوع جديد لقد أصبح مسئولا عن خزائن الأرض وعليه أن يدير أمر الدولة بما يحقق لها مطالبها . وقد كان منه ذلك على الرغم مما كان فى ذلك الوقت من قحط استمر بضع سنين .

وحينما يستقر الأمر له إذ فاجأ بوقوف إخوته بين يديه فيعرفهم وهم لايعرفونه لقد جاءوا إليه يطلبون رفده ويرجون عونه . وهم الذين فعلوا به مافعلوا وهم لايشعرون أنهم سيقفون بين يديه يوماً من الأيام .

(١) يوسف ٢١ (٢) يوسف ٢٨

ويكون بين يوسف وإخوته ما هو معلوم مما حكاه القرآن فيذهبون أول مرة ويرجعون بأخ لهم من أبيهم . ثم يعودون إليه مرة ثانية يطلبون مزيداً من العون فيفاجئهم بما فعلوا ويطلعهم على حقيقة أمره ويطلب إليهم بعد أن صفح عنهم أن يذهبوا لإحضار أبيه . ويجتمع شمل الأسرة بعد تفرق . ويعود النور إلى عيني يعقوب عليه السلام بعد أن كان فارقهما من كثرة بكائه وحزنه على بنيه . وتتحقق الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام وهو صغير .

ولا يمكون منه عليه السلام إلا الاعتراف بالفضل للحق جل وعلا وإلا الشكر للمنعم عليه بكل تلك النعم . فيكون منه ذلك القول الذي سجله القرآن .

(رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين)(١) .

هذا عرض سريع لقصة لسيدنا يوسف عليه السلام مما حكته السورة المسماة باسمه في القرآن . ولنعد بعد ذلك إلى ذلك المشهد الخاص الذي آثرت بإفراده بالبحث ذلكم المشهد الذي حكته الآيتان الكريمتان اللتان ذكرتا أول الكلام إن ذلك المشهد هو ما كان بين سيدنا يوسف عليه السلام وامرأة العزيز . وإذا كنا قد سلمنا سلفاً بأن سيدنا يوسف عليه السلام هو نبي من أنبياء الله الذين وجبت لهم العصمة بل إنه النبي ابن النبي ابن النبي ابن النبي فهو ذو النسب العريق بين الأنبياء .

فهو كما جاء في صحيح البخاري (الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم) .

ومن كان هذا قدره وتلك منزلته كان من الممكن أن لا يثار حوله أي غبار ولا ينتشر حوله أية شائعة . ولكن البعض من الدارسين قدامى

---

(١) يوسف ١٠١

ومحدثين قد شغلوا أنفسهم بما وقع بين سيدنا يوسف عليه السلام وامرأة العزيز . ولم يكن الكل فى هـــذا الشأن على كلمة سواء بل إن منهم وهم المحققون قد عرفوا لنبى الله وابن أنبيائه مكانته فتكلموا الكلام الذى تليق نسبته إلى أحد أنبياء الله ورسله . أما الآخرون فقد ساروا مع الإسرائيليات . وصدقوا بكل كلام وصل إليهم فسجلوه . دون إلتفات إلى شخصية المتحدث عنه ومنزلته ومكانته . وسنحاول بتوفيق الله عما قريب تسليط الأضواء على كتابة هؤلاء وأولئك . موضحين أن الحق من هذه الأقوال هو ماينا سب مقام الأنبياء ولا يتعارض مع العصمة الواجبة لهم باليقين من الأدلة .

ولو تأمل أى دارس أو باحث فى سورة يوسف عليه السلام بتمامها قبل أن يشرع فى تحديد المراد مماجاء فى الآيتين السابقتين أقول لو تأمل ذلك لظهر له بادىء الرأى أن العصمة لنبى الله يوسف عليه السلام ثابتة وأنه بمقتضاها لم يقع منه إثم لا صغير ولا كبير فقبل هاتين الآيتين مباشرة تتحدث السورة عن بيع يوسف عليه السلام فى مصر بيع الرقيق واستقراره فى بيت العزيز . ثم يجىء بعد ذلك قوله تعالى : (ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزى المحسنين)(١) .

فهذه الآية تجىء قبيل الآية التى جاء فيها ذكر المراودة وما أعقبها من الهم .

لكن هذه الآية تنطق بأن الله سبحانه وتعالى قد أعطى لسيدنا يوسف عليه السلام حين بلغ أشده حكماً وعلماً وكان ذلك جزاء إحسانه . ولو كانت القصة مرتبة فى السورة ترتيباً زمنياً لكان موقع هذه الآية فى آخرها بعد ذكر المراودة وما جاء فيها لكن الله سبحانه وتعالى حينما يضع هذه الآية الناطقة بطهارة سيدنا يوسف عليه السلام وبراءته من كل مارمى به أقول يضع هذه الآية فى ترتيب المصحف قبل آية المراودة فإن

(١) يوسف ٢٢

ذلك يدل دلالة قاطعة على أن الله سبحانه وتعالى يرشد القارىء والسامع من أول الأمر إلى أن أى شىء مما نسب إليه واستنبط من ذكر المراودة ليس بصحيح . والله قد عجل الحكم على سيدنا يوسف عليه السلام قبل أن يذكر ما كان بينه وبين امرأة العزيز حتى يعلم كل ذى لب أنه عليه السلام قد سلم ونجا ولم يكن منه ما يستوجب المؤاخذة وإلا فكيف يكون إعطاؤه الحكم والعلم والحكم عليه بأنه من المحسنين إذا كان قد حصل منه ما يخل بعصمته .

ولنعد إلى الآيتين السالفتين .

إن الآية الأولى وهى التى جاء فيها ذكر المراودة قد حسمت الموقف وقطعت الطريق على كل متقول . فهى حينما صورت موقف المرأة من سيدنا يوسف عليه السلام وموقفه منها أبانت أن كل شىء كان من جانب المرأة ، فهى المراودة وهى المغلقة للأبواب . وهى الداعية إلى نفسها . أما يوسف عليه السلام فلم يكن منه إلا أن استعاذ بالله مما دعته إليه وأعلن المبررات التى بها يلزمه البعد . (إنه ربى أحسن مثواى . إنه لا يفلح الظالمون)(١) .

أفبعد ذلك البيان القرآنى يمكن أن يقال أن هناك شبهة تشير إلى سيدنا يوسف عليه السلام . اللهم لا .

لكن البعض لما وجد الآية التالية تنسب الهم إلى كل من سيدنا يوسف عليه السلام وامرأة العزيز وقع فى الحيرة وبدأ بشرح معنى الهم الذى كان من كل واحد منهما فكان من ذلك ما كان وحتى تكون الصورة واضحة أمام القارىء نزيد هاتين الآيتين إيضاحاً فنقول وبالله التوفيق :

جاء فى مجمع البيان فى تفسير قوله تعالى (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك) ما نصه :

---

(١) يوسف ٢٣

المراودة : المطالبة بأمر بالرفق واللين ليعمل به ولا يقال فى المطالبة بدين راوده ، وأصله من راد يرود إذا طلب المرعى ، وفى المثل (الرائد لايكذب أهله) . وفى الآية كناية عما تريده النساء من الرجال .

والتغليق : إطباق الباب بما يعسر فتحه . وإنما شدد ذلك لتكثير الإغلاق أو للمبالغة فى الإغلاق اهـ(١) .

ولما كانت صيغة المفاعلة ربما توهم أن الفعل قد صدر عن الإثنين رد ذلك الإمام الألوسى حيث قال : (وهى مفاعلة من جانب واحد نحو مطالبة الدائن ومماطلة المدين ومداواة الطبيب وغير ذلك مما يكون من أحد الجانبين الفعل ومن الآخر سببه)(٢) اهـ .

ثم يعقب على ذلك ببيان أن المراودة كانت من امرأة العزيز وكان السبب هو جمال يوسف عليه السلام وافتتانها به . فنزل ذلك منزلة الفعل .

ثم ينتقل الألوسى فيقول : (المراودة منازعة فى الرود بأن يكون له مقصد مجيئاً وذهاباً وللمفاعل مقصد آخر يقابله فيهما ، ومعنى المفاعلة ههنا إما المبالغة فى رودها أو الدلالة على اختلافهما فيه . فإنها طلبت منه العمل وهو طلب منها الترك وهذا أبلغ . ولما كان منازعة جيء (بعن) فى قوله تعالى (عن نفسه) كما تقول جاذبته عن كذا دلالة على الإبعاد وتحصيل الجذب البالغ .

---

(١) مجمع البيان مجلد ٥ ، ٦ ص ٢٢٢

(٢) روح المعانى جـ ٦١ ص ٢١٠

ولهـــذا قال فى الأساس : ومن المجاز راودته عن نفسه جاذبته عنها . اهـ(١) .

وبما ذكره الأعلام من المفسرين الذى ورد آنفاً يظهر بوضوح أن المراودة إنما كانت من فعل امرأة العزيز، ولعل النظم القرآنى قد أكد ذلك حينما أسند المراودة إليها وذكرها باسم الموصول ليدل بالصلة على تمكنها منه أيما تمكن ، وبعد ما كان من المرأة من المراودة التى لم تلق قبولا من سيدنا يوسف عليه السلام لم يكن أمامها إلا الإفصاح والإظهار فقالت كما قال القرآن (هيت لك (ولقد قرئت تلك الكلمة بقراءات شتى ، ولكن المعنى على كل قراءة ، إما أن يكون أقبل وتعال ، وإما أن يكون قد تهيأت وتجملت لأجلك .

والناظر فى هذا الموقف لابد أنه يرى كما رأى صاحب الظلال أنه لابد أن يكون قبل هذا الموقف مواقف كثيرة ، قد حاولت فيها المرأة ولكن ربما كان ذلك على استحياء .

فالمعروف أن ذلك الموقف لم يكن عند مقدم يوسف عليه السلام إلى بيتها ، وإنما كان بعد ذلك بمدة ربما تكون قـــد وصلت إلى العشر سنين .

والمرأة دائماً تحب أن تكون مطلوبة لا طالبة ، وحينما تلجأ إلى أن تصير طالبة فلابد أن ذلك بعد أن بذلت من الجهد الشىء الكثير حتى تكون فى المكان الذى تحبه ، ولكنها عندما تعجز عن حمل يوسف عليه السلام على أن يكون هو الطالب وتعجز أيضاً عن حبس مشاعرها وقهر شهواتها

---

(١) روح المعانى حـ ١٢ ص ٢١١

فإنها تضطر إضطراراً حينئذ للإفصاح عما فى نفسها وتتكلم بذلك اللفظ الصريح داعية سيدنا يوسف عليه السلام إلى ما تريده منه .

ولنلتفت لنرى ماذا كان جوابه عليه السلام على هذا العرض المكشوف والإغراء الواضح ، إنه يرد بأحسن كلام (قال معاذ الله) إستعاذ بالله من هذا الشر الخطير ولجأ إلى القوى القدير ليحميه ويكتب له النجاة فى هذا الإمتحان العسير .

وحينما يستعيذ يوسف عليه السلام بالله من الوقوع فى مثـــل هذه الفاحشة يأتى من الأقوال ما به يلفت نظر المرأة إلى ما يليق به فيقول (أنه ربى أحسن مثواى أنه لا يفلح الظالمون) .

وقد أختلف المفسرون فى مرجع الضمير فى (أنه) هل هو ضمير الشأن أو أنه يعود إلى العزيز أو إلى الله الذى لا إله إلا هو ، وأياما كان مرجع الضمير فإن التعبير يلفت نظر المرأة أن مطاوعتها خروج عن الواجب ، فإذا كان الضمير راجعاً إلى الله عز وجل فإن يوسف عليه السلام يقول لها: كيف أقابل إحسان الله إلى بعصيانه لقد نجانى من الجب وهيأ لى طيب الإقامة .

ولعله كان يحس بالمستقبل الذى ينتظره من النبوة ، وما يليق بالعاقل إلا أن يشكر المنعم على نعمائه .

أما إذا عاد الضمير على العزيز زوج المرأة وسيدها فكأن يوسف عليه السلام يقول لها : لا يصح أن أخون الرجل فى أهله وهو الذى تولى تربيتى بعد أن اشترانى وهو الذى أوصاك بالإحسان إلى فى إقامتى عندكم ، ومن يفعل الذى تطلبينه يكون من الظالمين . وقـــد حكم الله على الظالمين بعدم الفلاح .

وكأن يوسف عليه السلام قد رد عليها أولا بما هو الأحق بالملاحظة والمراقبة أنه الله الذى يطلع على كل شيء والذى حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

فكان لزاماً عليه أن يخافه ويستعيذ به ، ولما لم يفلح ذلك مع المرأة وهى فى تلك الحال ذكرها بما هو اللائق بها نحو زوجها . أن له عليها حق الأمانة فى كل شيء .

وأولى الأمانات بالصون إنما هو العرض،فأن هى لم تكن من المؤمنات اللائى يعرفن الحلال والحرام فلا أقل من أن تكون زوجة تعرف حقوق الزوج عليها ، ومن اعتدى على حق فقد ظلم ، ومن ظلم فلافلاح له ، ولاشك أن الزناة من أول الظالمين .

ويعقب الألوسى على ذلك فيقول:(وأياما كان ففى الإقتصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض لاقتضائها الإمتناع مما دعته إليه إيذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية فى الدلالة على استحالته و كونه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلا)(١) .

ويصل بنا التنزيل بعد ذلك إلى قوله جل وعلا(ولقد همت به وهم بها ، الآية وهنا كان محل الإهتمام الذى شغل القدامى والمحدثين ، فأدلى كل منهم بدلوه فى تلك القضية .

والآراء فى هذا الموقف يمكن تلخيصها فى ثلاثة :

الرأى الأول : يثبت الهم لسيدنا يوسف عليه السلام ولكنه يجعله هما غير مذموم .

---

(١) روح المعانى حـ ١٢ — ص ٢١٣

الرأى الثانى : ينفى الهم مطلقاً من سيدنا يوسف عليه السلام ويقول أنه لم يوجد منه أى هم .

الرأى الثالث : يثبت الهم لسيدنا يوسف عليه السلام ويصفه بأنه هم مذموم لكنه عليه السلام لم يتجاوز ذلك الهم ولم يصل إلى التلبس بالفعل لما رأى برهان ربه .

هذه هى الآراء الثلاثة التى ذكرها المفسرون وقبل أن نتناولها بالشرح ونعقب عليها بالتعليق أود أن أضع بين يدى القارىء المعانى التى استعمل فيها (ألهم) حتى نرى بعد ذلك أى هذه المعانى ألبق بأن ينسب إلى رسول من رسل الله ، وأيها أولى ، بنفيه وإبعاده عنهم عليهم الصلاة والسلام .

جاء فى مجمع البيان ما يلى :

(ألهم) فى اللغة على وجوه منها : العزم على الفعل ، كقوله تعالى : (أذهم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم)(١) أى أرادوا ذلك وهزموا عليه ، ويستشهد على هذا المعنى بأبيات من الشعر منها قول الخنساء :

وفضل مرداسا على الناس جلة ... وأن كل هم همه فهو فاعله

ومنها : خطور الشىء على البال وإن لم يقع العزم عليه ، كقوله تعالى: (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما)(٢) يعنى أن الفشل خطر ببالهم ولو كان ألهم ههنا عزماً لما كان الله وليهما ، لأن العزم على المعصية معصية، ولا يجوز أن يكون الله ولى من عزم على الفرار من نصرة نبيه عليه وعلى آله السلام ، ويقوى ذلك قول كعب بن زهير.

فكم فيهم من فارس متوسم ... ومن فاعل للخير إن هم أوعزم

---

(١) المائدة ١١ (٢) آل عمران ١٢٢

ففرق بين الهم والعزم .

ومنها : أن يكون بمعنى المقاربة ، قالوا هم فلان أن يفعل كذا إذا كاد يفعله .

ومنها : قول ذي الرمة :

وكنت متى تهمم يمينك مرة
لتفعل خيراً تقتفيها شمالكا

ومنها : الشهوة وميل الطبع يقول القائل فيما يشتهيه ويميل طبعه إليه ، هذا أهم الأشياء إلى ، وفي ضده ليس هذا من همي .

وإذا كانت معاني الهم في اللغة متعددة يجب أن ينفى عن نبي الله يوسف عليه السلام مالا يليق به وهو العزم على القبيح ، لأن الدليل قد دل على أن الأنبياء لا تجوز المعاصي والقبائح عليهم وأجزنا عليه ماسواه من معاني الهم لأن كل واحد من ذلك يليق بحاله اهـ بتصرف(١) .

وبعد أن وضحت معاني الهم اللغوية نعود إلى توضيح الآراء السالفة فيما حصل من يوسف عليه السلام .

قلنا : إن أصحاب الرأي الأول يرون أنه كان هناك هم من يوسف عليه السلام لكنه هم غير مذموم . فكيف كان كذلك .

---

(١) مجمع البيان جـ ٥ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤

إنهم يقولون : لقد تعلق الهم فى الآية الكريمة بذات يوسف عليه السلام وذات المرأة فإذا فسر الهم بالعزم وجب تقدير محذوف يصح تعلق الهم به . وذلك أن الذوات الموجودة والثابتة لا يصح تعلق العزم بها إذ كيف يعزم ويراد الأمر الموجود . وإذن فلا مفر من تقدير محذوف وحينما يصدر المحذوف فإنه يقدر فى كل مكان بحسب ما يليق به ففى جانب المرأة يقدر همت بمخالطته وإرادته على الفاحشة ، وفى جانب سيدنا يوسف عليه السلام يقدر هم بضربها أو دفعها عن نفسه . وبذلك يستقيم المعنى . فهى تريد منه ما تريده المرأة من الرجل . وهو يحفظ الله يمتنع عن ذلك ويحاول النجاة بنفسه . ولو كان طريق النجاة هو ضربها أو دفعها فإن قال قائل لما هذه التفرقة فى تقدير المحذوف ؟ فالجواب أن ذلك ناشىء لما قامت عليه الأدلة من وجوب العصمة لأنبياء الله ، أما هى فانسب إليها جائز عليها . وهناك من الشواهد ما يؤيده . ولقد ذكر القرآن قبل ذلك المراودة . ونسبها إليها (وراودته التى هو فى بيتها) وشهد بذلك النسوة حينما قلن (إمرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) واعترفت المرأة بذلك حيث قالت (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) فذلك كله كاف فى إثبات الإختلاف بين متعلق الهمين . وعلى هذا الفهم يكون جواب لولا محذوف تقديره لولا أن رأى برهان ربه لفعل الضرب أو الدفع ، ويكون معنى رؤيته عليه السلام لبرهان ربه أن الله سبحانه وتعالى أعلمه أنه لو فعل ما أراد أهلكه قومها أو قتلوه أو ادعت عليه المراودة على القبيح وقذفته بأنه دعاها إليه وضربها لامتناعها منه .

فصرف الله عنه السوء وهو القتل . والفحشاء وهى ظن اقتراف الفاحشة منه . كما أنه من الممكن أن يشق قميصه فى أثناء الضرب والمدافعة من الأمام وكان فى علم الله أن الشاهد سيشهد بأنه إذا كان قميصه شق من أمام فهى الصادقة وإن كان شق من الخلف فهو الصادق . فكان حفظ الله له حيث جعله يهم بالضرب ونحوه ولكن لم يفعله .

---

(١) يوسف ٣٠ (٢) يوسف ٣٢

أما الرأى الثانى :

فقد ذهب القائلون به إلى أنه لم يقع هم البته من سيدنا يوسف عليه السلام . ويبنون كلامهم على أن معنى الآيه : ولقد همت به . ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها والبعض يرى الكلام مبنى على التقديم والتأخير . وأن أصل الكلام : ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها . وما أظن أن النظم الكريم يتحمل ذلك التأويل البعيد .

لكن ذهب أبو حيان فى البحر إلى أن الكلام مبنى على أن جواب لولا محذوف يدل عليه ما قبله . وقد أثار نقاشا نحويا فى هذه المسألة خلاصته أنه لا يصح الإعتراض بأن جواب لولا لا يصح أن لا يتقدم عليها . وهو مع عدم تسليمه بهذا القول يقول أنه يقدر الجواب محذوفا دل عليه المذكور وهو بهذا يتمشى مع القائلين بأن جواب لولا لا يتقدم عليها ولو أنه لا يسلم به كما سبق .

وبناء على ما ذهب إليه أبو حيان فلم يكن هناك هم أصلا إذ أن الهم مقدر الوجود على فرض عدم وجود البرهان .

أما وقد رأى يوسف عليه السلام برهان ربه فقد انتفى الهم من أصله . ويستشهد على ذلك بما جاء فى كلام العرب من قولهم : أنت ظالم إن فعلت كذا . فإنهم يقدرون جواب الشرط فأنت ظالم . ومع هذا فالظلم منتف عن المخاطب لأنه إنما يثبت حينما يثبت الفعل . ولا فعل .

ثم يؤكد ما فهمه من الآية بآية أخرى هى قوله تعالى (إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها) فهى لم تبدى لوجوب الربط .

وبهذا التحليل نخلص إلى نتيجة هى أنه لم يكن هناك هم ومن باب أولى لم يكن هناك فعل .

---

(١) القصص ١٠

أما أصحاب الرأى الثالث : فهم الذين نسبوا الهم القبيح إلى سيدنا يوسف عليه السلام ثم عصمه الله حينما أراه البرهان .

يقول الألوسى . وممن ذهب إلى تحقيق الهم القبيح منه عليه السلام الواحدى . فإنه قال فى كتابه البسيط : قال المفسرون الموثوق بعلمهم المرجوع إلى رواياتهم . الآخذون للتأويل عن شاهد التنزيل : هم يوسف عليه السلام أيضا بهذه المرأة هما صحيحا وجلس منها مجلس الرجل من المرأة فلما رأى البرهان من ربه زال عنه كل شىء . اهـ (١)

ثم هم يذكرون فى تفصيل ما وقع من سيدنا يوسف عليه السلام فى تلك الحال الكثير من الروايات التى لا تليق واحدة منها بأن ينسب إلى نبى من أنبياء الله مما يحملنا على أن نمسك عن ذكرها صونا لمكانة ذلك النبى الكريم وما حديثها بالغريب أو البعيد على من أراده .

ويعلق الإمام الرازى على ماجاء فى تلك الروايات كما نقله عنه الألوسى فيقول : ويعقب الإمام الرازى على ما ذكر بأن هذه المعصية التى نسبت إلى يوسف (وحاشاه) من أقبح المعاصى وأنكرها . ومثلها لو نسبت إلى أفسق خلق الله تعالى وأبعدهم عن كل خير لاستنكف منه . فكيف يجوز إسناده إلى هذا الصديق الكريم ؟ وأيضا أن الله سبحانه وتعالى شهد بأن ما هية السوء والفحشاء مصروفتين عنه اهـ (٢) .

ومع هذه الشهادة فكيف يقبل نسبة أعظم السوء والفحشاء إليه عليه السلام ويستطرد الألوسى فى الإستدلال على نفى كل ما نسب إلى يوسف عليه السلام مما لا يليق به بأنه لو صح ذلك فكيف يستقيم مع تعقيب الله عنه

---

(١) روح المعانى جـ١٢ صـ٢١٤

(٢) روح المعانى جـ١٢ صـ٢١٥

فى الآية بقوله (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) فهذه العبارة وإن لم تدل على نفى المعصية فإنها تدل قطعا على مدح من تحدثت عنه . و كيف يكون المدح إمن الحكيم لذلك العاصى .

ثم يستطرد قائلا (ومن نظر فى قوله تعالى (إنه من عبادنا المخلصين) رآه أفصح شاهد على براءته عليه السلام ، ومن ضم إليه قول إبليس . (فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين) وجد إبليس مقرا بأنه لم يغوه . ولم يضله عن سبيل الهدى . كيف وهو عليـــه السلام من عباد الله تعالى المخلصين بشهادة الله تعالى ، وقـــد استثناهم من عموم (لأغوينهم أجمعين) وعند هذا يقال للجهلة الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام تلك الفعلة الشنيعة . إن كانوا من اتباع الله سبحانه فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته عليه السلام ، وإن كانوا من أتباع ابليس فليقبلوا شهادته . ولعلهم يقولون لنا كنا أول الأمر من تلامذته إلى أن تخرجنا فوقنا عليه فى السفاهة كما قال الحريرى .

وكنت إمرأ من جند إبليس فانتهى
بى الحال حتى صار ابليس من جندى

فلو مات قبلى كنت أحسن بعده
طـرائق فسق ليس يحسنها بعدى

هذى هى أراء السابقين فى ما كان من يوسف عليـــه السلام مع امرأة العزيز ا . ه

وبعد استعراض ما سبق يظهر ظهور الصبح لذى عينين أن يوسف عليه السلام كان فى المـكانة العليا من العفاف والأمانة وما ذلك على نبى الله وابن أنبيائه بالمستغرب .

وجاء فى دليل الفالحين . بعد ذكر الحديث الذى رواه ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال (إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنه فلم يعملها كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة وإن هم بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة)(١)

يقول شارح الحديث بعد ذلك (تنبيه) لم يقع من يوسف عليه السلام هم بمعصية على ماقاله ابن أبى حاتم ومن وافقه ، ومعنى الآية عندهم (وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) أى لولا رؤية البرهان لهم لكنه لم يهم لأنه رآه ، وعلى المشهور فى الآية فالهم الواقع منه بمعنى حديث النفس المعفو عنه . وأعلم أن مايقع فى النفس من قصد المعصية على خمس مراتب :

(الأولى) الهاجس وهو مايلقى فيها (ثم) جريانه فيها وهو الخاطر (ثم) حديث النفس وهو مايقع فيها من التردد هل يفعل أو لا (ثم) الهم وهو قصد ترجيح الفعل (ثم) العزم وهو قوة ذلك القصد والجزم به : فالهاجس لا يؤاخذ به إجماعا لأنه ليس من فعله وإنما هو شىء طرقه قهراً عليه ، وما بعده من الخاطر وحديث النفس وإن قدر على دفعهما مرفوعان بالحديث الصحيح الذى هو قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله تجاوز عن أمتى ماحدثت به أنفسها مالم تتكلم به أى فى المعاصى القوليه « أو تعمل به » أى فى المعاصى الفعليه لأن حديثها إذا ارتفع فما قبله أولى . اهـ(٢)

---

(١) متفق عليه .

(٢) دليل الفالحين جـ ١ صـ ٧٧

وهكذا نجد صاحب دليل الفالحين يخرج ما كان من يوسف عليه السلام من الهم ويجعله فى مرتبة أدنى منه معفو عنها . و كأنه سمى هما للمشاكلة حيث جاء مع هم امرأة العزيز .

وهو بذلك يوافق بعض الباحثين السابقين .

وقد ذكر الإمام فخر الدين الرازى هذه الشبهة والجواب عنها فقال :

قال القاضى أبو طاهر الطوسى رحمه الله تعالى : شهد ببراءة يوسف من الذنب كل من له تعلق بتلك الواقعة من زوج وحاكم ونسوة وملك وادعى يوسف ذلك واعترف له خصمه بصدق ماقاله مرتين ، وشهد بذلك رب العالمين الذى هو أصدق القائلين ، واعترف ابليس فكيف يلتفت إلى قول هؤلاء الحشرية ؟ !

أما شهادة الزوج فقوله تعالى : (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين)(١)

وأما شهادة الحاكم فقوله (وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين)(٢) . وأما شهادة النسوة فقولهن (حاش لله ماعلمنا عليه من سوء)(٣) .

وأما شهادة الملك فقوله (انك اليوم لدينا مكين أمين)(٤) وأما إدعاء يوسف عليه السلام ذلك فقوله (هى راودتنى عن نفسى)(٥) وقوله (رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه)(٦) وقوله (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب)(٧) وأما اعتراف الخصم فقولها للنسوة (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم)(٨)

---

(١) يوسف ٢٨، ٢٩
(٢) يوسف ٢٦ ، ٢٧
(٣) يوسف ٥١
(٤) يوسف ٥٤
(٥) يوسف ٢٦
(٦) يوسف ٣٣
(٧) يوسف ٥٢
(٨) يوسف ٣٢

وقولها (الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه) وأما شهادة رب العالمين فقوله (وكذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء)(١) وأما اعتراف ابليس بذلك فقوله تعالى حكاية عنه(لأغوينهم أجمعين إلا عبادك المخلصين) فبين أنه يغوى الكل إلا المخلصين ويوسف من المخلصين لقوله تعالى(وإنه من عبادنا المخلصين) فأية شبهة تبقى مع هذه الشهادات فى براءة يوسف عن الذنوب . ثم قال القاضى : وهؤلاء الطاعنون فى يوسف إن كانوا من حزب الله فليقبلوا قوله، وإن كانوا من حزب الشيطان فيجب أن لا يتركوا قوله (لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) اهـ(٢)

أما بعد: فأرجو أن أكون قد ألقيت ضوءا ولو خافتا على قدر الإستطاعة وما سمح به الوقت على تلك القضية التى شغلت الأذهان قديما وحديثا وحسبى الله وما توفيقى إلا بالله .

د . عبد السلام محمود الذهبى

---

(١) يوسف ٢٤

(٢) عصمة الأنبياء ص ٤٩، ٥٠